بين مطرقة نيتشه ورفش جبران

* الباحثة: رشا أسماعيل الكناني أ.م. د ميثم محمد يسر
جامعة واسط / كلية الآداب/ قسم الفلسفة

تاريخ الاستلام : 05-08-2021
تاريخ القبول : 22-09-2021

ملخص البحث:

تأثر جبران خليل جبران ، بفلسفة نيتشه، تأثراً كبيرا، فقد بلغ به حدّ التقمص الذي ظهر في عدد من نصوصه، ولا سيما في كتابه النبي، إذ كان نيتشه حاضراً في فلسفة جبران التي ظهرت جليا في أدبه ولكن بشكل ضمني، وليس بشكل مباشر كما هو عند الأخرين، كما تميز جبران عن غيره، بأنه تأثر بنيتشه في مرحلة متأخرة وليست مرحلة مبكرة من حياته كالأخرين، مما جعله يستنكر بعض كتاباته السابقة، لما انتابها من الضعف، ما قبل التأثر بإرادة القوة النيتشوية.

كلمات إفتتاحية: تقمص، حضور، تأثير

Between Nietzsche's Hammer and Gibran's Shovel

* Rasha Ismaiel AL-kinany Dr.Maitham Muhammad Yusur
Wasit University – college of Arts

Receipt date: 2021-08-05
Date of acceptance: 2021-09-22

Abstract

Gibran Khalil Gibran was greatly influenced by Nietzsche's philosophy, reaching the limit of reincarnation that appeared in a number of his texts but implicitly, not directly, as it is with others, especially in his book The Prophet. Among others, as Gibran distinguished from others, he was influenced by Nietzsche at a later stage and not in the early days of his life like others, which made him denounce some of his previous writings, due to their weakness, before being influenced by the will of the Nietzschean force.

Keywords: Reincarnation, presence, effect

.

المقدمة:

كان جبران وما زال في تاريخ النقد العربي واحداً من تلك الوجوه العظام التي تتطلب نقداً لحياتها أكثر منه لأنتاجها، ذلك أن حول أمثال هؤلاء تنمو الأساطير الشعبية القومية. فصار لزاماً على كل باحث مدقق أن يحاول هدم الأسطورة ليكون بحثه مبنياً على الحقائق الموضوعية البحتة.

إن هذه الأساطير ما كانت لتنمو حول جبران لو لم يكن في نتاج عبقريته لغز مبهمٌ يبيح لكل ناقد أن يفهمه على طريقته الخاصة. كما وأن جبران حرص ذاته على استمرار هذا اللغز في كل ما كتبه قد شجّع على تصديق هذه الأساطير.

كيف تقمص جبران الروح النيتشوية:-

وجبران هو شاعر ورسام وكاتب معروف في العالم بأصقاعه المتباعدة كافة ولد في قرية"بشري" الواقعة على سفح خلاّب من سفوح لبنان حيث يقع ضريحه ومتحفه في مغارة كبيرة محفورة في الصخر كانت ديراً للرهبان فيما مضى، وتجد في متحف جبران الذي أفتتح عام 1975 معرضاً لرسوما ته وكتبه والعديد من مقتنياته الشخصية وفيه يرقد جثمانه بروعة وكبرياء منذ عام 1932 في مغارة صغيرة كتب عليها عبارة أراد جبران أن تكتب على قبره تقول "أنا حيُ مثلك وأنا واقف الان إلى جانبك فأغمض عينيك والتفت تراني أمامك" (أبو دية،2008،ص137)

يمثل جبران قاموساً أدبياً فاعلاً أنطلاقاً من تصوراته الوجودية، أن المتطلع في كل ما أنتجه جبران يلاحظ أنه أمام حكيم تمرد بمرونة على وضعه الداخلي، ليصل بذلك الى ثورة جنونية سرعان ما تحولت الى مرارة داخلية افقدته توازنه، وجعلته يهيم في العنف، وظل يفكر بوطن سحري غريب عن نفسه وجسده، وبعد أن تشبعت نفسه بالوحدة والغربة هدأت ثورتها تدريجياً، ودخل الى مرحلة الروحانية الهادئة فتحول خلالها جبران الى نبي رحمة وسلام.

تحدث ثروت عكاشة عن جبران خليل جبران، فلما عاد الى الولايات المتحدة واتسعت آفاقه ودخل نيتشه حياته ومن بعده "زرادشت" بتعاليمه وفلسفته تغير أسلوبه، وبعد أن كان جبران يسيل رقةً في عواطفه أصبح يهيم بالقوة في كتابات نيتشه بل أنكر ما كان يؤمن به أيام شبابه وبخاصة مفهوم الحب وقد أصبح عنده سيادة واستعلاء.(جبران،2000،ص45)

"نيتشه فيلسوف وشاعر وما ائتلف الفكر والشعر على يراعٍ موهوب الاّ وخلّده، ونيتشه منقلب خطير، وخطر في تاريخ الفكر الغربي، ولا بدّ للمفكّر العربي من أن يعرفه، ونيتشه ثورة على قَيم، وإبداع قَيم، قولُ بتطّور، ودعوة الى تفّوق، والتطوّر والتقّدم

طابع هذ العصر، ونيتشه صرخة إن يسمعُها العالَم العربي يذكرْ مجداً عبر، ويسعَ الى غدٍ أمجد، والّمْ تكن سبلُه سبل نيتشه، ونيتشه من أهمِ روافد الفكر الجبراني ونمكّن دارس جبران من ان يقارن ويدقّق" (قمير،2005،ص7)

أضطرب جبران في هذا الطور من حياته بين شخصيتين، شخصية تأخذ بالقوة وتثور على العقائد والدين، وشخصية تتبع الاميال وتحب الاستمتاع بالحياة فكان على حد قوله "يميل الى الهدم ميله الى البناء فهو صديق الناس وعدّوهم في وقت واحد" فقد ظهرت شخصيته الاستمتاع في كتابيه "الاجنحة المتكسرة 1918- ودمعة وابتسامة 1913" وظهرت شخصية الثورة في كتابه الأرواح المتمردة. (الفاخوري،1953،ص11-12)

يطوي العبقري من خلال عمر واحد أعمال أجيال سبقته وأجيال رافقته وأجيال تأتي بعده فيموت ليحيا ويحيا غيره ليموت. ويحيا العبقري في قلوب الأجيال لأنه يعطي الآمها الخرساء ألسنة من نار ويمّد آمالها المعقّدة بأجنحة من نور فللّحم والدم في كل زمان ومكان مغاور سحيقة تتزاوج في ظلماتها الملذات فتنسل أوجاعاً، وللروح أجواء فسيحة يرددها الفكر والخيال فيضرمان الشوق الى الانعتاق من الوجع. والعبقري من أستطاع أن يسبر الأغوار ويجوب الأعالي وأن يعود من تلك وهذه بصورة الأنسان الأمثل وهدفه الأسنى الا وهو الحياة التي لا تأخذها سنة الموت ولا تكبّلها قيود اللحم والدم ولا تحصرها حدود الزمان والمكان وجبران كان ذلك العبقري.(ميخائيل،1964،ص5)

عندما بلغ جبران العقد الثالث من حياته كان نيتشه دليله الأول، ومساعده الأكبر، ومؤنس وحدته الأعظم، فأندمج فيه أندماجاً جوهرياً وكيانياً وصار يحس بوجوده في شخصه، فشعر بوحدة وبغربة تقصيه عن ماضيه، فهدم القديم المسترخي وبنى الجديد القوي قال "كنت أرى الحياة من وراء دمعة وابتسامة، أما اليوم فصرت أراها من وراء أشعة ذهبية سحرية تبعث القوة في النفس، والأقدام في القلب، والحركة في الجسد".(قبعين،1993،ص38)

أفتتح جبران مرحلة جديدة من مراحل حياته كانت كلها انصرافاً الى التأمل والتفكير والفلسفة بعد أن تعرف على مؤلفات نيتشه ولا سيما كتابه "هكذا تكلم زرادشت" "وما عرف جبران نيتشه حتى كاد أن ينسى كل من عرفهم قبله من كبار الكتاب والشعراء .... وحتى أحسَّ بوحدة أقسى من ذي قبل تكتنفه أينما سار وبغربة تقصيه عن ماضيه الى حدّ أنه صار يخجل أمام نفسه من كل ما كتبه وصّوره حتى ذلك الحين"(الفاخوري،1953،ص222)

اهتدى جبران الى نيتشه سيد المتمردين والمتهكمين وحامل لواء الثورة على القيم الرثة التي يدين بها الناس فوق كل دين، فأنجرف بتيار نيتشه وما برحت معتقداته السابقة تشّده الى الوراء، فكانت "المواكب" نتيجة لتلك الحالة القلقة التي أحسها جبران

ما بين قوتين تتجاذبانه، قوة الأيمان بحكمه الحياة وعدلها وجمالها في كل ما تأتيه، وقوة النقمة التي آثارها نيتشه من جديد على ضعف الناس وخنوعهم وتواكلهم وكل ما في حياتهم الباطنية والخارجية من قذارة وبشاعة، وأنتصر نيتشه في النهاية.(ميخائيل،1964،ص24-25)

أعجب جبران بصفات في نيتشه كان اكثرها تمرده وخروجه على كل المقدسات واسلوبه الصريح من تعبيرات لماحة نابضة بالحياة، وأثرت فلسفة نيتشه بدرجة كبيرة في جبران عندما جعلته يجيب طلب صديق له حاول جمع مقالاته العاطفية في مقال "دمعة وابتسامة" ورد قائلاً:

ذاك عهدُ مـن حياتي قد مضـى بيــن تشبيـب وشكـوى ونـواح.(جبران،2000،ص46)

ثار جبران في بدء حياته الأدبية على الظلم الذي تجسّد له أوّل ما تجسد في جور التقاليد والحكّام وغطرسة رجال الدين في لبنان وانتهت ثورته تلك برواية "الاجنحة المتكسرة" وعقبتها فترة قصيرة في التصوف والاستسلام ما لبث أن أفسدها نيتشه بثورته الجامحة الهاصرة، فقد كان كتاب "هكذا تكلم زرادشت" في نظر جبران "من أعظم ما عرفته كل العصور" .(ميخائيل،1964،ص25)

تعرف الكتّاب اساساً على النواحي التي كانت وراء ثورة جبران في مؤلفاته نستطيع فهم النبوءة الجبرانية ذلك أن النبوءة أية نبوءة كانت ذات وجهين متلازمين السبب والنتيجة: وجه مشكّك هدّام يحّطم كل ما يسيء الى الفطرة الإنسانية ويشوه حقيقتها، ووجه مؤمن بنّاء يعيد لهذه الفطرة صفاءها وجمالها، وكل فصل بين هذين الوجهين هو اصطناع وهمي لا أساس له. (علم الدين،1981،ص47-48)

أكتسب جبران طابعاً نيتشوياً فـ "يقف الشاعر" الأنسان المتفوق المدرك لأسرار الوجود والعدم في مواجهة الناس الذين يبدون أحياء وهم اموات منذ الولادة يحتقرهم ويسخر منهم ويظل عظيماً متعالياً في وحدته، أن ملاحقة أجيال الناس "عبيد الحياة" تتعبه ويمل النظر الى مواكب الشعوب وآلامهم المستعبدة فيجلس وحيداً في وادي الأشباح، حيث تختبأ خيالات الأزمنة الغابرة وتربض أرواح الأزمنة العاتية وهناك يتعرف على الحرية وأبنائها.(المرعي،2012،ص21-22)

ثار جبران مع نيتشه لا على الحكام والرهابين وحدهم بل على جميع الناس وتقاليدهم ومقاييسهم وموازينهم وعلى الأسس الواهية التي أقاموا عليها صرح حياتهم فلا أديانهم ولا سياساتهم ولا فلسفاتهم حررتهم من الخوف والذل والعبودية والمسكنة بل

أنها على العكس من ذلك مكنت في نفوسهم مخاوف ورذائل لا حصر لها أذ قضت على الإرادة الخلاقة فيهم التي هي وحدها الكفيلة بأن تبلغ بهم الانسان الأمثل أو الانسان المتفوق أو السوبرمان.(ميخائيل،1964،ص25)

وجد البقاء السرمدي للإنسان الزاحف نحو الألوهية بالتقمص التحريري يصطدم جبراً بالكيان الألهي الذي ينبغي ولو عرفاً أن يظل فريداً في مستوى سرمديته فيقول جبران "أنا كنت منذ الأزل وها أنذا وسأكون أخر الدهر وليس لكياني انقضاء.(غسان،1983،ص211-217) فالتقمص الجبراني يبطل كل الاعتبارات الوثنية مركزاً على الجوهرية البشرية في سعيها الى المثالية والخلود.

يعتبر كتاب جبران "النبي" مجموعة من ظلال لشخص تاريخي نبوي الرسالة هو المسيح، استلهم جبران أسلوبه الكلامي في الوعظ والإرشاد والمثل القصير كما استلهم روح تعاليمه الخلقية في البراءة وحب الطبيعة والمحبة ليدرجها في "النبي" عظات ارشادية للتواقين الى الكمال. (غسان،1983،ص237)

إذن فجبران لم يتأثر بأفكار نيتشه وفلسفته فحسب، بل وجد أنه تقمصه، فكراً وأسلوباً، وكتب على طريقته، وصنع شخصية المصطفى التي تشبه شخصية زرادشت والتي باح من خلالها بما يروم في نفسه من أفكار، ولكنه لم يصل حدّ تمرد نيتشه الفجّ، وثورته العارمة الصارخة، بل غلب عليه الشاعر، فظلّ أدبياً لا يبحث عن المغامرة والخطر كما فعل نيتشه.

الحب والحرية والتمرد، وهي عناصر بارزة والتي تقوم عليها "فلسفة جبران ومذهبه" في الحياة وهي التي تكون مضمونه الأدبي وينبثق منها رأيه في الحياة الشرقية وتحدد له الأهداف التي كان يسعى الى تحقيقها.(التليسي،1978،ص47)

تطورت فلسفة جبران بتطور تفكيره الشديد، فلم تتبلور فكرته الا بعد مخاضٍ طويل فقد أنطلق من لبنان يحمل ثقافة واسعة، وعقيدة مسيحية انتقلت اليه من ذويه ومن بيئته، ولم يتعمق فيها درساً وتحليلاً وكان شأنه في ذلك كله شأن عامة الشعب من الشرقيين، وقد واجه في أمريكا الشمالية ما واجهه أكثر المهجرين من احتكاك بحرية فكرية واسعة وتيارات ايديولوجية متباينة، ومن انفتاح وعيً على ما ينشر وما يتداول وما تصل اصداؤه وترجمات من أوربا.

قارن بعض النقاد بين كتاب نيتشه "هكذا تلكم زرادشت" وبين كتاب النبي "جبران خليل جبران" أن الكتابة النتشوية مثقلة بنزوع رمزي طاغٍ وميل الى فخامة الفصاحة، ويبدو نبيّ جبران هوائياً صافياً مفرطاً في بساطته، مفعماً بنفس شرقي لا ينضب كما يقول جبران أن نيتشه يمتلك حساً تحليلياً، والحس التحليلي يفرط عادة في الكلام.

أما على مستوى الأفكار فيبدو الاختلاف هو الغالب لا الشبه فبينما يعلن نيتشه موت الله "مات جميع الألهه، وما نصبوا اليه في الوقت الحاضر هو أن يحيا الأنسان المتفوق". يرجع جبران كل شيء الى الله. وفيما يجعل نيتشه من المسيح هزأة، يحتفل جبران بعظمة الشخص "استطاع جبران أن يصالح أعجابه بنيتشه وحبه ليسوع جاعلاً من يسوع الأنسان الخارق الذي ينادي به نيتشه". (نجار،2008،ص219)

سلك جبران في فلسفته طريق النمو التطوري، فكانت مرحلته الأولى مرحلة الرومانسية المتألمة التي تنتصر للدين من مفسديه وللمجتمع والحياة الاجتماعية من الذئاب البشرية والظالمين، وكانت مرحلته الثانية مرحلة القوة والتمرد والثورة على التقاليد والعادات والامتداد في الطموح الأنساني الى التحرر المطلق، وكانت مرحلته الأخيرة الوقوف مع المصطفى يسوعاً أنسانياً أنهى دوراته التقمصية وتجوهر في الذات الكلية، وفي وحدة وجودية تشرف عليها المحبة وترتبط بعضها ببعض برباط مقدس أزلي. (الفاخوري،1953،ص239)

غير أننا إذا عريّنا فلسفة نيتشه من ثوبها الشاعري لوجدنا فيها دستوراً انسانيّاً للإصلاح الاجتماعي والفكري والديني، ولتعرفنا من خلالها الى حقيقة نيتشه ودوره في الحياة ذلك أن نيتشه يبرز من بين سطور تعاليمه واحداً من تلك النفوس الكبيرة استطاعت الإفلات من قيود الواقع الاجتماعي، وتمكّنت من اقتحام عالم الحقيقة الصافي.

لم يستطع نيتشه أن يتكيف مع واقعه وبيئته التي تدعو الى الاعراض عن الدنيا وملذاتها، فراح يعمل هدماً وإحرقاً في كل ركيزة من ركائزها جاهداً في اجتثاث جذور المفاسد التي تسيء الى الحقيقة، ذلك المعبود الأكبر الذي أخلص له نيتشه طيلة حياته كيف لا وهو الذي يقول فيها:(علم الدين،1981،ص127-128)

"لا يكفي لطالب الحقيقة أن يكون مخلصاً في قصده، بل عليه أن يترصد اخلاصه ويقف موقف المشكّك فيه لأن عاشق الحقيقة إنما يحبها لا لنفسه مجاراة لأهوائه بل يهيم بها لذاته ولو كان ذلك مخالفاً لعقيدته".(نيتشه،2014،ص11)

برز تأثر جبران بأسلوب العرض عند نيتشه في طريقته الكتابية التي اعتمدت على الأسلوب الشعري، فعلى الرغم من المنطلق العقلي الذي ارتكز عليه نيتشه في عرض تعاليمه، فقد بدا في تعبيره شاعراً من طراز رفيع تفيض في كتاباته الخيالات الشعرية المجنحة، وقد اعتمد جبران الأسلوب ذاته في سرد تعاليمه النبويّة (علم الدين،1981،ص182)

أ-النسخة العربية من العدمية "جبران امام نيتشه"

يعتبر جبران أول مفكر عربي تمثل "فكرة العدمية بوصفها المعنى الأنطولوجي الأساسي لتجربة الأنسانية الغربية عند نهاية القرن الماضي، مثلما أنه القارئ العربي الحديث الأول لمفكر هذه العدمية الغربية بامتياز "نيتشه نفسه" (المسكيني،1997،ص33-34)

أشار الكتّاب الى إن أهمية فلسفة جبران هي في كونه لم يقلد الغرب في موضاته الجامعية عكس ما يفعله بعض الباحثين اليوم، بل ساهم في تجربة الحداثة وعمل على تجديدها داخل افق المجتمع الصناعي، فضلاً عن تحديث علاقات القيم والسلطة والرغائب في بداية القرن الحالي حتى في قلب الغرب "أمريكا" مع اطلاع معين على تجارب الفكر والأدب في القرنيين التاسع عشر والعشرين، بدايةً من تولستوي مروراً بوليام بليك إلى معرفة ما بالموسيقى "بيتهوفن خاصة" والخروج على المسرح والشعراء الكلاسيكيين "شكسبير ودانتي وهوغو" انتهاءاً بالفلسفة"سبينوزا ونيتشه"(المسكيني،1997،ص33-34)

قال نيتشه "أين الإله؟ صاح فيهم: أنا سأخبركم! لقد قتلناه- أنا وأنتم! نحن جميعاً قتلة. مات الإله! ويظل الإله ميتاً! ونحن من قتلناه! كيف يمكننا أن نعزي أنفسنا، نحن أكبر القتلة؟ إن أقدس وأعظم ما امتلكه العالم قد نزف دمه حتى الموت بطعنات مُدانا: من سيمسح هذه الدماء عن أيدينا؟ أي ماء سيطهرنا؟ ألا يجب علينا أن نصير نحن أنفسنا آلهة لمجرد أن نبدو جديرين بهذه الفعلة؟ " (نيتشه،1993،ص142)

لقد فرض نيتشه معنى العدمية تعني بالتحديد شكل من اشكال المرض والانحطاط، الخاص بالحضارة الأوربية، في طور من تاريخها هو طور موت الآلهة الذي يسجل انهيار العقيدة التي كان الانحطاط قد بنى عليها مملكته، فالعدمية تعني ان مجموعة المثل والقيم التي كانت تضمن سيطرة الانحطاط تخون العدم الذي كان أساسها المستتر.(غرانية،2008،ص36)

احتلت العدمية مكانه أساسية عند نيتشه خصوصاً في كتاباته الأخيرة وبالأخص كتابه "إرادة القوة" حيث اعتبر أول من وصفها وصفاً دقيقاً وصاغها صياغة نهائية كاشفاً عن كل خفاياها واعراضها على الرغم من أنه ليس مبتكرها، كما إن العدمية ليست مذهباً يتبعه بعض الأشخاص ولا رأياً لفيلسوف ولا ظاهرة تاريخية تشبه بقية الظواهر الأخرى فضلاً عن أنها ليست حركة إلحادية لكونها تنكر الأله أو تعلن "موته" بل هي تجربة جديدة تلوح في الأفق، ويمكن تعريفها عند نيتشه أن العدمية على أنها مسار تاريخي وحركة أساسية لتاريخ الغرب بمعنى أنها قانون هذا التاريخ ومنطقة الداخلي كما انها ضرورة من ضرورات تاريخ الحضارات وتطورها.(مفرج،2010،ص69-70)

دعا نيتشه الى العدمية الى هدم القيم السائدة، القائمة على الايمان بالله والدين والخَلق أو القائمة على الوجدان أو على التقدّم أو على العقل أو على الغريزة الاجتماعية، ورأى نيتشه ان تزول هذه القَيم بل أن تقلب وتسود قيم مضادة لها، مبنية على الايمان بإرادة الاقتدار كمبدأ واحداً لكلّ القَيم. بالتالي لكل ما يُنمي إرادة الاقتدار في الانسان قيمة، وكلّ ما يضعفها أو يعوقها خالٍ من القيمة، بل منافٍ للقيم الحقّ. بمعنى ليس للعالم غاية خارجة عنه، وليس للأنسان غاية خارجة عنه، أو مرجوة في عالم آخر، غاية واحدة للأنسان هي تزايد إرادة الاقتدار فيه وتحقيق المتفّوق.(قمير،31،2005-32)

اما جبران فقد قال:

قائلاً "إن كان لك رب فبربك قل لي من أنت"

قال: أنا رب نفسي.

فقلت: وما أسمك

قال: الإله المجنون .....

فقلت: وممن تعلمت الحكمة .....

فقال: "لست بحكيم فالحكمة صفه من صفات البشر الضعفاء بل أنا مجنون قوي اسير فتميد الأرض تحت قدمي وأقف فتقف معي مواكب النجوم، وقد تعلمت الاستهزاء بالبشر من الأبالسة، وفهمت أسرار الوجود والعدم بعد أن عاشرت ملوك الجن ورافقت جبابرة الليل" ..... الخ.(جبران،ب ت،ص910)

افتتح جبران عهده الجديد بالعواصف كتبه في وطأة الأزمة الروحية التي اجتاحت بتأثره الحاد بنيتشه، وافتتح العواصف "بحفار القبور" أذ يتلبس جبران النيتشوي ألهاً مجنوناً، ويلتقي جبران في وادي ظل الحياة المرصوف بالعظام والجماجم، وينصح له بأن ينصرف عن الشعر الى مهمة حفر القبور، فيريح الأحياء من جثث الموتى المكدسة حول منازلهم ومحاكمهم ومعابدهم، أولئك الذين خلقوا أمواتاً ولم يجدوا من يدفنهم، فأنطرحوا فوق الثرى، مواطن نتن وفساد.(قبعين،1993،ص38)

يحمل الاله المجنون في "حفار القبور" وجوه شبه كثيرة لصورة الاله المجنون عند "نيتشه" ولعل شخصية حفّار القبور كانت من أعنف ما قدّم "جبران" في أدبه من شخصيات، وقد اقترب في هذه المقطوعة كما لم يقترب في أيّة مقطوعة أخرى من نيتشه فإله جبران المجنون يحفر البشر جمعياً ويعّدهم أمواتاً يتحركون.

ومجنون نيتشه يرى أن الاله الذي جاء في زمن قبل زمانه، وينظر بأحتقار الى البشر، وجبران هنا يكتشف المعنى النفسي للدين والعبادة حيث يقول: أن الانسان على مرّ العصور لم يعبد سوى ذاته فيلقبها ألقاباً مختلفة، وكأنه هنا يقتل الله من حيث هو حقيقة خارجية، يخلق الذات الأنسانية التي يجب عليها أن تتفوق كي تصل الى مستوى الله، فيحقق بذلك أنسان نيتشه المتفوق الذي يحل محل الاله القتيل.(يوسف،2012،ص84)

يعتبر كتاب جبران "العواصف" النسخة العربية للعدمية من تجربة الحداثة كما عاشها الغرب نفسه في بداية القرن، وهي عبارة عن قصيدة عدمية مطوله وتفكر رهيب بالعدم من خلاله وضده إنه يطارد عدمياً قيمياً عنيداً هو فقدان العرب لإمكانات الولادة والاختلاف واختراع الزمان الخاص، والقدرة على دفع الجسد الى أقاصيه. أما ذروة الحس العدمي فهي تتكشف لنا منذ الفصل الأول من هذا الكتاب العدمي الأول في تاريخنا الحديث وعنوانه "حفار القبور" (المسكيني،26،1997)

العدمية في حفار القبور لا تسكن العنوان فحسب بل هي مبثوثة في كل ثنايا هذه الحكاية الرمزية من فضائها إلى الزمن الداخلي إلى الشخوص إلى الأحداث إلى تمفصلها العام إلى فراغاتها المحتملة، فقد أستبدل جبران مطرقة نيتشه التي تكسر أصنام الحداثة برفش لا يكسر بل يحفر قبوراً لأصنام الشرق بعدما يئس حتى من تكسيرها ومثلما فكر نيتشه على ضربات المطرقة فان جبران قد جعل التفكير "مقبره نشيطة" تحتمل موتاها العاجزين عن المشي إلى أكفانهم.(المسكيني،1997،ص36-47)

فالعدمية بهذا المعنى ليست "إرادة العدم" فليس ذلك سوى المسار الارتكاسي الشامل وتراجع فج للقوى المريدة فإن كل شهوة للعدم بما هو كذلك لا تؤدي إلا إلى عدمية منقوصة ومزيفة تلك التي لا تعدو أن تكون مبدأ الإبقاء على الحياة الكاذبة والضعيفة والدنيا وإن نفي الحياة هو مبدأ كل عدمية تنحو إلى حياة مرتكسة قد تحيا وتنجو وتنتصر وتصبح معدية.(المسكيني،1997،ص35-36)

وهكذا فالإحساس بالعدمية هو "إحساس بغياب القيمة، ويبرز حينما نكشف أن طابع الوجود في مجمله لا يمكن أن يؤول بمصطلحات الغاية والوحدة أو حينما نكتشف وباختصار أن مبادئ الغاية والوحدة والوجود التي أعطينا قيمة للوجود عن طريقها هي مبادئ نسحبها منه فيبدو وكأنه بدون قيمة"(مفرج،2010،ص72)

أما عدمية نيتشه فهي "عدمية انتصرت على نفسها من الداخل إنها تدمير نشط لما هو ارتكاسي وسلبي فيها، إنها قوة العدم من جهة ما هي انتخاب موجب وفعّال للفكر، وهي عدمية مكتملة لإنها جعلت من النفي سلباً للقوى الارتكاسيه نفسها إنها لا

تبقي على الضعفاء بل هي تدفنهم في قبور الضعف التي ألفوها، أذن معنى العدمية بعد نيتشه يتلخص في نقطتين: (1) موت الاله من جهة و(2) انحطاط القيم المصاحبة لمثل هذا الحدث الرهيب في وعي أوروبا السري".(المسكيني،1997،ص36-37)

إنها تشخيص ناقد لعصر فظيع هو نسيج من الضجر والكآبة، وشهوة العدم والهوس باللانظام والانخراط القاسي في أنتظار كارثة ما، في عالم تراجع عنه الاله، واستبدل أصنامه المتخلقة، بسيطرة فجّة لقيم الفردانية، في وقت أنزاحت فيه كل أشكال التأسيس من الذوق إلى قرارت السلطة، وغلبة التصور التقني للعالم، وغياب كل ارتقاب جّدي للخروج من عصر العدمية .(المسكيني،1997،ص36-37)

قضى نيتشه بصورة فعالة بمطرقته على جميع الحقائق المنيعة موجهاً ضربة قاضية للقيم المحتضرة، حيث أعتبر أن العدمية مرحلة وسطى بين نوعين من التقويم أحدهما أنقضى وأخر سيأتي، فأنها ستمثل الضريبة التي يجب أن يدفعها الانسان ليخرج من وضعه ويعثر على دربه الجديد، كذلك يرى نيتشه المُثل وهي تتهاوى أمام عينيه وهي تمثل تبديد لكل الأوهام التي قدستها الإنسانية وأقامت لها المعابد والهياكل.(مفرج،2010ص73)

إن خصوصية فكرة "إلالة المجنون" عند جبران "هي أنها الشكل العربي لموت الإله في أوروبا، الإله في فكر جبران لم يمت كصنمٍ من الحلوى من ورق في أوروبا، وحس عدمي بالقيم كما يلخص ذلك نيتشه، لأن داعية موته، كآخر حدث عظيم لتاريخهم القيمي، لأن عدمية جبران هي رأيه في الإله "حفار القبور" هو الصحابي الوحيد لهذا الإله المجنون الذي شكله جبران لنا بالاستناد إلى الملامح العربية لشكل العدمية على الطريقة الشرقية، عدمية يسكنها الموت بقدر ما تعمل على دفنه وتطهير الأجساد من رائحته الكريهة".(المسكيني،1997،ص45-46)

إن فكر جبران خليل جبران لم يطمح لتفسير الوجود وبمعزل عن الانسان الحي كما هو كائن، بل سعى الى الحديث عن الانسان في هذا الوجود وكيف يجب أن يكون فلم يهتم بالتصورات الفلسفية الكمالية على غرار بعض الفلسفات الاوربية المغالية في التجريد، وفي البعد عن الحياة فالمعرفة عنده وسيلة للتكامل الخلقي الأنساني ولسيت معرفة مجردة عن حاجات الأنسان، انه يريد أن يقوده في طريق التكامل ليبلغ سدته المرتجاة أي عماله وألوهيته ولأن الفلسفة الخلقية تنصب بكليتها على حرية الأنسان في مسلكه ومعرفته وطموحه، لذلك أحترم الفكر الجبراني هذا القطب المحوري للخلق الأنساني فبقيت أبعاده الفلسفية ملكاً لحرية التصور عند القارئ.(غسان،1983،ص267-268)

ونستنتج من ذلك هناك عوامل مشتركة تجمع ما بين جبران ونيتشه ، ولقد تشابها في أشياء كثيرة " لقد نشأ كلاهما في بيئة متعبدة وثارا عليها، كان والد نيتشه قسيساً بروتيستانياً وجد جبران لأمه كان كاهناً مارونياً، وكلاهما عرفا منذ الحداثة بصرامة الخشنة وصلابة الرأي والميل الى العزلة وكلاهما قاسا البؤس والعلة المزمنة وضراوة الطغيان، كلاهما ذاتي التفكير، وكلاهما أحب الجمال وأنصرفا اليه متخلصاً من التشاؤم، وكلاهما أحس العبودية معنوية في أساسهاً أكثر منها مادياً وأن التحرر الحقيقي لا يبدأ ألا في الثورة على الذات الضعيفة، وكلا الرجلين مجدا الألم كمعلم الأنسانية الأفعل، وكلاهما وجدا في ذاته نبياً أو أله".(قبعين،33،1993)

تحولت رومانسية جبران ورمزيته عند الفكرة الفلسفية الى عاطفة جياشة يحسها ويعاني أفراحها والأمها ويعبر عنها بحرارة فلم يعد لجبران هماً يشغله سوى أن يدافع عن كل ما يراه، لقد طفح في داخله كيل الوجود حتى لم يبقَ له من شاغل الا محتويات نفسه وتمددت نفسه الى درجة لم يعد يرى معها سوى أصواتها ولا يسير الا مع اشواقها ومطامحها تتعدد أبطاله ولا بطل الاه، فهو الشخص ونقيضه، والصوت وصداه، والعلة والدواء، هو الباكي المنتحب، والمهلل الفرح والرجال والنساء في قصصه ورواياته، وهو الجنية الساحرة والملك السجين، وحفار القبور والشاعر البعلبكي.(نيشاوي،1984،ص182)

رحل جبران عن عالمنا ولا يزال بعد رحيله يشغل الناس بأدبه وفنه كما كان يشغلهم في حضوره فالأداب العربية لم تعرف حتى الآن آديباً كان له الأثر الذي لجبران، إذ أنه فاصل تاريخي حاسم بين التقليد والتجديد أنطوى بوجوده عهد وبدأ عهد.(القول،1994،ص15)

ولعل أصلح تحديد لمنهجيته الفكرية هو القول إن الرجل لم يلتزم بالتعريف التقليدي للفلسفة على أنها "محبة الحكمة" بل ناضل في سبيل الأنسان معتبراً "الحكمة المحبة" أصدق تعريف للتطلع الفلسفي فأتخذه قاعدة محورية لأدبه وفنه.(غسان،1983،ص268)

يقول عنه ميخائيل نعيمة "جبران سيحيا في أدابنا لأنه ثورة زعزعت أركان حصوننا الأدبية المتداعية، وجاءتنا بمقاييس جديدة للجمال في البيان، سيحيا جبران لأنه عاصفة أقتلعت كثيراً من أغراسنا المسنة البالية التي كانت بلا ظل ولا ثمر، سيحيا جبران لا بنقده للتقاليد والطقوس بل بعواطفه المتدفقة تدفق السيل، وبروحه الطامحة أبداً من المعلوم الى المجهول، من الوجود الى ما وراء الوجود، السابحة أبداً في عالم الجمال المطلق الناطقة بألحان النظام السرمدي....."(ميخائيل،1964،ص285)

ويقول عنه حنا الفاخوري "عبقرية خالدة تخطت حدود المكان والزمان وكان لها تحت كل كوكب مملكة وسلطان نطقت بالكلمة فرددها الكون بكل لغة ولسان"(القول،15،1994).

المصادر والمراجع:-

1. (ابراهيم ، خالد يوسف،2012م) الادب الفلسفي، دار النهضة العربية، ط1، بيروت.
2. (أبو دية، ايوب،2008م) موسوعة اعلام الفكر العربي الحديث والمعاصر، المكتبة الوطنية،ط3،عمان.
3. (التليسي، خليفة محمد،1978م) الشابي وجبران، الدار العربية للكتب، ط4، ب ت.
4. (جبران، خليل جبران، ب ت) العواصف، دار العرب، الهيئة العامة لمكتبة الاسكندرية، ب ط ، القاهرة.
5. (جبران، خليل جبران،2000م) النبي، ترجمة، ثروت عكاشة، دار الشروق،ط9،القاهرة.
6. (علم الدين، مصطفى سليم،1981م)نبي جبران وزرادشت نيتشه، مؤسسة خليفة للطباعة،ط1،ليبا.
7. (غرانية،جان،2008م) نيتشه، ترجمة، علي بو محلم، مجد للدراسات والنشر،ط1، بيروت.
8. (غسان،خالد،1983م) جبران الفيلسوف، مؤسسة نوفل،ط2،بيروت.
9. (الفاخوري، حنا،1935م) تاريخ الادب العربي، للمطبعة البولسية، ب ط، ب ت.
10. (قبعين، ريموند،1993م) النزعة الروحية في أدب جبران ونعيمة، دار الفكر اللبناني،ط1،بيروت.
11. (قمير، يوحنا، 2005م) نبي المتفوق، دار المشرق، ط2، بيروت.
12. (القول، انطوان، 1994م) المجموعة الكاملة لمؤلفات جبران خليل جبران، دار الجبل،ط1، ب ت.
13. (المراعي،فؤاد،2012م) جبران خليل جبران، مركز دراسات الوحدة العربية،ط1، بيروت.
14. (المسكيني، فتحي،1997م) فلسفة النوابت، لدار الطليعة للطباعة والنشر،ط1، بيروت.
15. (مفرج،جمال، 2010م) نيتشه الفيلسوف الثائر، افريقا الشرق،ط1، بيروت.
16. (ميخائيل،نعيمة،1964م) المجموعة الكاملة لمؤلفات جبران خليل جبران، دار صادر،ط1،بيروت.
17. (نيتشه، فردريك، 1993م) العلم المرح، ترجمة، حسان بورقية، محمد ناجي، افريقا الشرق،ط1، المغرب.
18. (نيتشه، فردريك،2014م) هكذا تكلم زرادشت، ترجمة، فيلكس فارس، مؤسسة هنداوي، ب ت،القاهرة.

19-(نيشاوي، نسيب، 1984م) مدخل الى دراسة المدارس الأدبية في الشعر العربي، ديوان مطبوعات الجامعة، ب ط، الجزائر.

Sources and references:

1- (Ibrahim, Khaled Youssef, 2012 AD) philosophical literature, Dar Al-Nahda Al-Arabiya, 1st edition, Beirut.

2- (Abu Dayyah, Ayoub, 2008 AD) Encyclopedia of Media of Modern and Contemporary Arab Thought, National Library, 3rd Edition, Amman.

3- (Al-Tilisi, Khalifa Muhammad, 1978 AD) Al-Shabi and Gibran, Arab Book House, 4th edition, b.

4- (Gibran, Khalil Gibran, Bt) Al-Aasaf, Dar Al-Arab, General Authority of the Library of Alexandria, Bt., Cairo.

5- (Gibran, Khalil Gibran, 2000 AD) The Prophet, translation, Tharwat Okasha, Dar Al-Shorouk, 9th edition, Cairo.

6- (Alam Al-Din, Mustafa Selim, 1981 AD) Nabi Gibran and Zoroaster Nietzsche, Khalifa Foundation for Printing, 1st Edition, Libya.

7- (Grania, Jan, 2008 AD) Nietzsche, translation, Ali Bu Mahlem, Majd for Studies and Publishing, 1st Edition, Beirut.

8- (Ghassan, Khaled, 1983 AD) Gibran the Philosopher, Nofal Foundation, 2nd Edition, Beirut.

9- (Al-Fakhouri, Hanna, 1935 AD) History of Arabic Literature, for the Pauline Press, Bt, Bt.

10- (Qabain, Raymond, 1993 AD) The Spiritual Belief in the Literature of Gibran and Naima, Lebanese Thought House, 1, Beirut.

11- (Qamir, Youhanna, 2005 AD) Prophet of Excellence, Dar Al-Mashreq, 2nd Edition, Beirut.

12- (Al-Qoul, Antoine, 1994 AD) The complete collection of the writings of Gibran Khalil Gibran, Dar Al-Jabal, 1st Edition, Bt.

13- (Almarai, Fouad, 2012 AD) Gibran Khalil Gibran, Center for Arab Unity Studies, 1st Edition, Beirut.

14- (Al-Maskini, Fathi, 1997 AD) The Philosophy of Al-Nawabet, by Dar Al-Tali'a for Printing and Publishing, 1st Edition, Beirut.

15- (Mufarrej, Jamal, 2010 AD) Nietzsche, the revolutionary philosopher, Africa of the East, 1st Edition, Beirut.

16- (Mikhail, Naima, 1964 AD) The complete collection of works by Gibran Khalil Gibran, Dar Sader, 1st Edition, Beirut.

17- (Nietzsche, Frederick, 1993 AD) The Fun Science, translation, Hassan Bourqiah, Muhammad Naji, Africa of the East, 1st Edition, Morocco.

18- (Nietzsche, Frederick, 2014 AD) Thus Spoke Zarathustra, translation, Felix Faris, Hindawi Foundation, BT, Cairo.

19- (Nishawi, Nassib, 1984 AD) Introduction to the Study of Literary Schools in Arabic Poetry, Diwan of University Publications, Bt, Algeria.